مجلة الرائد

العدد : ٢٢٦ الموافق في ذو الحجة ١٤٢١ هجري ٣/٢٠٠١ ميلادي

عنوان المقال : من وحي انتفاضة الأقصى	الكاتب : نوال السباعي

الثمن

يقال ان لكل شيء في هذه الحياة ثمنا ، وانه" **مامن رجل الا وله ثمن**" ، حتى أولئك الرجال الذين يستعصون على الأثمان ، وأن للصغار منهم ثمنا ، وللكبار ثمنا ، وكما أن لأصحاب النهم المادي ثمناً فكذلك لمنهوم العلم ثمن ، فهل سأل كل واحد منا نفسه ، ماهو ثمن الاشياء والاحداث التي تجري من حوله ، ومن يدفع ثمنها ، وكيف ؟

وهل يسأل الواحد منا : إلى أي نوع من الرجال ينتمي ، وكم هو ثمنه ؟ ، ألف دولار ؟ مائة ألف ؟ منصب ؟ وجاهة ؟ مستقبل ؟ كلمة مديح ؟ إعجاب بالنفس ؟ تصفيق الجماهير ؟ ومهما كانت قليلة أو غبية أو تتشكل من مجموعة من الإمعات ؟

هل يكون ثمن أحدنا مكتبة تهدى إليه ؟ أو مؤتمراً يستضاف فيه فيكرم ويعزز بما هو كفيل بقص لسانه ؟ أم بضعة رسائل تصله تمجد قلمه وتمدحه وتشد علىعضده ؟

ماهو ثمنك أو ثمني ؟ زوجة جميلة غنية يحظى بها المرء فيجد أمام الناس مايبرر رغبته في التفاخر على عباد الله ؟ أم التهديد باعتقال أحد أو كل أفراد الأسرة لكي يكف عن "النق " من خلف الحدود و "التعليك " الدائم حول قضايا مملة ، كالحرية والكرامة ، وبناء هياكل المجتمع ليحل مكان مجتمع القبائل ، ودولة المؤسسات لا الصدقات والمنح العلوية التي يصبح معها المواطن متسولا في وطنه؟

ماهو ثمني أو ثمنك ؟ خوفي أو خوفك أن يلحق بأولادنا سوء بسبب كلمة خطها المرء قبل خمسة عشر عاما ، ويدخل في ذلك ألسنة الخلق كما سياط الظلمة ، ولايكاد الواحد منا يميز أيهما أشد قهرا وإيلاما!! ، هل الثمن لقمة عيش شريفة ؟ أم لقمة عيش مدنسة بالذل والامتهان ؟؟

* * * * *

وكلما ارتفع الثمن المادي كان معدن الرجال بخسا ، وكلما صعب الثمن كان الرجل من طينة متعبة العريكة ، فمن الرجال من يتفنن الآخرون في شرائه ، ومنهم من تلقى إليه الفتات، وهو يسير خلف من يظنهم أرباب نعمته، مطأطيء الرأس ذليلا ، أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، حتى لتجد أحدهم يبالغ في مديح أسياده إلى درجة تتمعر معها وجوههم ويستحيون من الناس ان كانت فيهم بقية من حياء .

ومن الرجال من تكفيه البسمة في وجهه والإكرام والرضى ، ومنهم من تلجمه الكلمة الطيبة ، ومنهم من يقيده العهد والوعد ، ومنهم من ثمنه عمل المعروف ، والتوسيع على عباد الله والسير في حوائجهم .

ومن الرجال " أغوال " ..لاتكفيهم تلال من جماجم الضحايا ، ولاتروي عطشهم أنهار من دماء المظلومين ، ولايرضي غرورهم إلا اعتقال الناس وتعذيبهم وإذلالهم واستلاب الحياة من عروقهم صبرا وحزنا ، ومن الرجال من يريد رضى شعبه ، وحرية مواطنيه ، وسعادة الإنسان في بلده ثمنا ليسود هذا الشعب وذاك الوطن .

* * * * *

رجال وأثمان ..وأوطان وأثمان ، وأزمنة وأثمان ، ولعلك تجد شطيرة جبن في مدريد تباع بدولار واحد ، وثمن صحيفة كصحيفة "الموندو" أقل من دولار ، وهي التي تحمل لنا كل صباح الدنيا فتضعها بين أيدينا، وطالما وجدت في سوق الأحد كتبا قديمة لاتقدر بثمن وهنالك تباع بثلاثة دولارات ؟

وماهو ثمن نيل أحدنا جائزة نوبل للجنون والفنون على سبيل المثال لاالحصر؟ ، ولقد كان ثمن استيقاظ الأمة دم "محمد الدرة " ، وقد استغرق دفع ثمن عودة الفلسطينيين إلى ايمانهم بالأمة العربية من جديد عشرين عاما ،وثمن اجتماع القمة العربية كان استشهاد مائة وستين من فلذات الأكباد، وثمن استجابة الفضائيات العربية لنزيف الدم الفلسطيني ، كان عين طفل مقدسي لايعرف من طعم الطفولة إلا قصر قامته وصوتاً نديا يقلد كبرياء الكبار ويلمّ عجزهم الجريح فيعيد تصنيعه في تلك البراءة ..ثم ليخرج علينا بكلمات من نار ونور في ذلك الفم الطاهر الصغير .

ثمن تحريك الأمة شهداء وشهداء ، وآذان وعيون وأرجل وأيدي مضرجة ،وإعاقات دائمة لشباب في عمر زهور الياسمين ، وثمن تجميد العلاقات مع "الكيان الغاصب " غضب الأمة ، ثم كسر خاطرها، ثم حرق أعصابها، ثم تهديد واضح بتمزيق الصف والضرب عرض الحائط بقدرتنا الرهيبة على الصبر الذليل واحتمال القهر ، وبيع الرجال أنفسهم بأثمان بخسة زهيدة ، في سوق النخاسة الوطني ،" بيمارستان " كبير بل هي "دار مشبوهة " يباع ويشرى فيها كل شيء ، كل شيء ، الماضي والحاضر والمستقبل ، الأرواح والأفكار والولآت ، الأولاد والنساء والآباء والأجداد ، الأهواء والآلهة والملائكة والشياطين ؟

ثمن سحب السفراء من لدى "الكيان السرطاني " خمسة عشر ألف جريح ، وهدم البيوت على المعذبين في أرضنا ، وترويع الأطفال وزلزلة أحلامهم في لعبة يفرحون بها ليلة العيد ، حتى لو كانت من صدقات

أصحاب الضمائر التي تريد ان ترتاح ليلة العيد على الأقل ، واضطراب كل شيء واختلاط كل شيء ، وثلاثون عاما من القهر المستمر والتعذيب والتركيع والتخريس ، وتجريد الشعوب من حقها في حياة انسانية ؟

* * * * *

فماذا يكون ثمن تحريرك ياقدس ؟ وماذا يكون ثمن الرجال الذين سيحررون هذه الأمة من أغلالها وقيودها وركوعها الدائم ،الذي أحنى منها الظهور فما عادت الجباه تصافح غير صفحات أحذية الغزاة والطغاة اللامعة ؟

وكم من الثمن والوقت ستستمر ياشعب الارض المباركة في دفع كل "فواتير " خنوعنا واستسلامنا ، نستند إليك ونعيش على موائد صمودك وجراحك وحياتك ..نحن الأموات ..نتنفس عفنا ، وأنتم هناك .. ياأبناء الشمس ،ياأطفال الحجارة ، مازلتم هناك وحدكم الراضين القادرين على دفع الثمن، تمنحوننا في كل ساعة سببا لاستمرارنا على قيد الحياة .

أمة.. تعلق مصيرها بيد " قاتل "!

لم يفاجيء خبر فوز السفاح "شارون "في الانتخابات أحدا ، حتى أولئك الذين بقوا متعلقين بشعرة من أمل انقطعت بهم في اللحظات الأخيرة ، لولا أنهم سارعوا حثيثا للتمسك بأوهام انقلاب " الصقور القاتلة " بعمليات تغيير إعجازية ليصبحوا "حمائم متوحشة" ، متوسمين بمقولة هم أبعد الناس عن التحلي بشرفها وهي " ان السلام قد لايصنع الا من مواقع القوة " .

لقد بدت هذه الانتخابات وكأن مصير الأمة العربية متوقف على نتائجها ، وكأن فوز "السفاح باراك " أو "القاتل شارون "، سيغير من طبيعة الأشياء ، أو أنه قد يفتح مجالا لاستمرار عملية السلام أو ايقاد نيران الحروب .

لقد امتلك "باراك " كل المفاتيح اللازمة والكافية لصناعة السلام ، ولكنه آثر التشبث بالباطل ، ولم يعرف كيف يتعامل مع أمة هانت على نفسها كأمتنا ، وأتته مهرولة تريد "الاستسلام" وبأي ثمن ، لكن ..وكما عجز "باراك " عن التراجع قيد أنملة عن مواقفه ، التي تلخصت بالاصرار على مشروعية الاغتصاب والقهر

ومنطق القوة وتشويه التاريخ ، وكما سقط تحت أقدام أطفال الحجارة الذين باتوا وحدهم القادرين اليوم على تحديد مصير القتلة ، فإن عجز "شارون القاتل " سيكون أعظم وأخطر ، وسقوطه سيكون أكثر دويا على المستوى العربي والعالمي ، لأن صاحب الانتصارات السوداء في مجال الموت والدمار ، هذا ، لم يستطع ولن يستطيع ترويض الشعب العربي الفلسطيني المصابر والذي أثبت انه لايستجيب كغيره من الشعوب العربية لمنطق الاغتصاب والقهر وتشويه الحقائق .

كما أن ظروف العالم اليوم ، لن تسمح لهذا "القاتل " بإحياء أحلامه الكبيرة التي كان قد طورها أثناء هجعته "الدراكولية "، فقد جاءت رسالة الولايات المتحدة إليه أكثر من واضحة عشية الانتخابات الاسرائيلية ، عندما قال له "بوش": "انه ليس مثل كلنتون ، ولاأفضلية لديه لأحد على أحد "! .

كثيرة هي الأمور التي يجب أن نفهمها من مثل هذه الرسالة المقتضبة ، فهي لاتعني استواء "شارون " وباراك" في عين القيصر الأمريكي الجديد فحسب ، ولكنها تعني كذلك استواء "العرب " و"اليهود "في منظور زاوية الاستراتيجيات الأمريكية في هذه المنطقة ، التي قام منها وفيها "بوش الأب "بالإعلان عن الصياغة النهائية لنظرية العولمة ، والتي يعتبر استقرار "الشرق الأوسط" _ معجزة السياسات الغربية _ أحد أهم محاورها الرئيسية .

ولايمكن والحال هذه لبوش الابن ، ولالبوش الأب ، ولالأحد في الطبقة السياسية الأمريكية بما فيهم أولئك المنتمون الى اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الامريكية ، أن يسمح بزعزعة الأمن والاستقرار في هذه المنطقة ، التي يستخدم فيها اليهود ، كما يستخدم العرب ، لخدمة المصالح الغربية ، الاقتصادية منها والسياسية والثقافية الحضارية .

إن أمن المنطقة ، يعني في المفهوم الغربي ، استقرار جميع الأوضاع الجيوسياسية في جميع البلدان الواقعة ما بين " الخليج الاسلامي " و" المحيط المغاربي "، كما يعني الحفاظ على أشكال الحكم المترسخة في هذه المنطقة خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، بقوة ترسانات عسكرية ، جهزت وصرفت عليها كل مقدرات الأمة ، ولكن بهدف تكميم الشعوب وقهرها وشل قدرتها على النمو والحركة ، وحرمانها من حقها في الحرية والكرامة واختيار المصير الذي تريد.

كما يعني هذا الأمن والاستقرار من وجهة النظر الغربية ، ضمان تدفق ثروات العرب النفطية والبشرية على الغرب، دون أن يعكر صفو هذا التدفق معكر من مفكرين أحرار يأبون التطبيع ، أو ثوار شداد يرفضون

التأميع ، أو أطفال أبطال ينفضون عن الأمة مذلة التركيع .

لقد عكس وصول "قاتل " مهووس بالولوغ في دماء الأبرياء مثل "شارون "هذا ...مدى الهلع المزلزل الذي كان قد أصاب المجتمع الإسرائيلي أمام " أطفال وشباب " الانتفاضة ، كما عكس شعور "المجتمع الاسرائيلي الصنيعة " بالتمزق والتشرذم وانعدام ثقته بكل رجال طبقته السياسية ، والذين لاتدل سلوكياتهم مجتمعين إلا على الانهيار الكبير القادم ، والانتحار الجماعي الإسرائيلي الذي سوف يتم قريبا على مرأى ومسمع من من هذا العالم ، الذي وقف اليوم مذهولا لايدري مع من يجب عليه أن يتعامل : مع "شارون " جزار "صبرا وشاتيلا ؟ أم مع "شارون القدس الموحدة تحت سيادة اسرائيلية تخوله اقتحام بيوت الله وتدنيسها كلما شاء ؟ ، أم مع "شارون " الذي ينادي بالسلام عشية انتخابات لم يجد أمامها العرب غير إشهار سلاح " خيار السلام الاستراتيجي " والذي أصبح ومن حيث لانريد ، أمضى سلاح يمكن أن تشهره هذه الامة الآن في وجه مجموعة القتلة والسفاحين والمجرمين التي تحكم هذا الكيان الغاصب المزروع في قلوبنا ووجودنا .

لقد فاز "شارون ".. ولعل الجماهير العربية لم تفرح منذ "انتفاضة الأقصى" بحدث سياسي ، فرحها بفوز هذا "القاتل " ، لأن فوزه يعني بالنسبة للكثيرين وضع حد _من عند غيرنا _ للتهافت العربي المؤلم على الاستسلام ، كما تعني نهاية هذا الكابوس الذي امتد من "مدريد" إلى "أوسلو " إلى "واي ريفير " وجثم على صدورنا أعواما طوالا ، لكن هؤلاء الفرحين من الجماهير التي طالما وقفت في المحطات بانتظار أن يصنع لها القادمون تاريخا ، هذه الجماهير لاتعي أن هذه الأمة كانت قد هانت على نفسها إلى درجة بدا فيها مصيرها وقفا على "قاتل " سوف ينظر في أمرها غدا أو بعد غد !!.

وانه قد لايكون بعيدا ذلك اليوم الذي سيتهافت فيه "كبراؤنا" لمصافحة هذا "القاتل" والتلهف على استضافته في فضائياتنا ، والعودة معه من حيث أتينا ، إلى مصائد الفئران ، لا إلى سلام الشجعان ، لأن الشجعان وقبل أن يمنحوا العفو والسلام لأعدائهم ، كانوا قد اعتادوا الجهاد المستميت في سبيل انتزاع حقوقهم منه.

* * * * *

مجلة الرائد

العدد : ٢٢٦ الموافق في ذو الحجة ١٤٢١ هجري ٣/٢٠٠١ ميلادي

عنوان المقال : من وحي انتفاضة الأقصى	الكاتب : نوال السباعي

واقع شبابي مؤلم

لعل الزلزلة الأخيرة التي شهدناها في انتفاضة الأقصى ، وماترتب عنها من كشف مذهل للحقائق التي نعيشها ونحن نبدو كالسكارى في غيبوبة ولانكاد نفيق ، جعلت الكثيرين من أصحاب الراي والفكر يعودون للبحث عن الأسباب الحقيقية لهذه الهزائم التي نعيشها في أنفسنا ، وهذا الموات الذي نعانيه في كرامتنا، وهذا الارتكاس والإخلاد إلى الأرض الذي يسود مجتمعاتنا .

والغوص في هذا الواقع مؤلم ولاتكفيه الوقفة ولاالمائة ، بل إنه يحتاج إلى تفرغ وتخصص وإلمام ، ودراسات ميدانية وأكاديمية ، وإحصائيات يومية ودورية، ومتابعة وحصر ومراقبة واخلاص ، وكلها عناصر نفتقر إليها بسبب تنكب الشباب عن دراسة الفروع الخاصة بها في جامعاتنا ، والعلوم الباهتة الشاحبة التي تقدمها معظم هذه الجامعات في هذا المجال ، وانصراف حكوماتنا عن الاهتمام بفروع النهوض بالأمم من علوم التاريخ والمجتمع والنفس والإحصاء والإعلام، وعدم توفر مناخات من الوعي والعلم تدفع الشباب إلى الاشتغال بها، فضلا عن نظرة المجتمع الشاذة لمن اختار ها من الشباب للتخصص فيها .

ولعل المتعامل اليوم منا مع شبكة الانترنيت ، يجد العجب العجاب مما يعكس الواقع المخزي الذي تعيشه الشبيبة العربية ، وحتى دون حاجة منه إلى دراسات ولا إحصائيات ، فمظاهر الغثاء والغوغائية أصبحت سمة رئيسية لغرف المحادثات ، لابسبب ماتشتمل عليه من بذاءة وهبوط فحسب ، ولكن بسبب مايكتشفه المرء هناك من واقع شبابي عربي مؤلم ، يتجلى في الضحالة الفكرية والأمية اللغوية المزدوجة ، والفقر المدقع إلى أدنى حدود اللياقة النفسية والشخصية لإنشاء المحادثات وبناء جسور التفاهم بين البشر الاسوياء ، فضلا عما يصاب به الإنسان من صدمة حقيقية وهو يتحقق مما آل اليه حال النخبة من أبناء العرب ، ممن استطاعوا التمكن من مفاتيح المعلوماتية ليستخدموها في مثل هذا الكم الهائل من سفاسف الأمور وتضييع الأوقات والأعمار والأموال .

ويستحيل على بالغ عاقل كبير ، فضلا عن فتى صغير ، أن ينشيء محادثة طبيعية باللغة العربية مع أحد في غرف المحادثات هذه ، وكثيرا مايدخل أبناؤنا هنا في الغرب هذه الغرف بحثا عن عرب يتحدثون اليهم في شؤون بلادهم، لينموا معرفتهم بها أو ليطوروا قدرتهم على استعمال اللغة العربية ، فلا يجدون هناك إلا أبشع مايمكن لفتى أو فتاة أن يجداه وهما يبحثان عن أوطان ضائعة في التاريخ والجغرافيا وهوية الإنسان ،

فمعظم شبابنا في غرف المحادثات الالكترونية ؛ اما مرابطون هناك يهذرون بكلام عامي سخيف غير مفهوم ، وإما يتسلون بسباب وشتائم تتمزق لسماعها اغشية أجهزة السمع ، وإما ينطلقون من انحرافات جنسية وشهوات متأججة ، أو هم هناك يستعرضون تعصبا دينيا غريبا وانغلاقا فكريا عجيبا وفهما للدين لم ينطلق إلا من أضيق الزوايا الإنسانية والفكرية .

لقد منحتنا شبكة الانترنيت فيم منحته من فرص ومغانم ، أن نكتشف الواقع الغريب الذي لايريد أحد الاعتراف به في بلادنا ، واقع الفوضى الفكرية ، والتفسخ الأخلاقي ، والانحطاط اللغوي ، والشذوذ السلوكي .

وكلنا يعرف أن سلطة المعلوماتية ، بلغت اليوم شأنا رفيعا في عالم آخذ بالتمايز إلى كتلتين جديدتين في ظل النظام العالمي الجديد ؛ إحداهما مجموعة أصحاب المعلوماتية وهم قلة قليلة في هذا العالم ، والاخرى كتلة أولئك الذين يعانون من الأمية المعلوماتية وهم الغالبية العامة من بني البشر ، وهذا التمايز لايعتمد على التاريخ ولاعلى الجغرافيا ، وليس للجنسية أو القومية أو العرق فيه دخل ، إنه تمايز أرغمت البشرية عليه ، بفعل هذا التطور المذهل للعلوم والاكتشافات ، والذي سبق وللأسف الشديد قدرة البشرية على تطوير أخلاقيات تجعل هذه الكشوفات في خدمة الإنسانية ، ولكنه وفي حالتنا الخاصة سبق حتى قدرتنا على محو الأمية وترسيخ احترامنا للغتنا العربية ، كما سبق أساليبنا التربوية ، وقدرتنا على وضع هياكل المؤسسات العامة التي تكفل إعداد الأفراد وبناء الجماعة .

إنه لأمر مؤسف للغاية ومؤلم أن تكشف لنا شبكة الانترنيت أو أن تؤكد لنا ماكنا نستشرفه، من انهيار اخلاقي فكري لغوي لدى شرائح واسعة من شبابنا ، وخاصة من هؤلاء الذين يمتلكون في أيديهم مفاتيح السلطة الخامسة ، والتي بدل أن يستخدموها لتذليل الصعاب العلمية والحياتية ، أصبحوا عبيدا لأزرارها ، وبريقها ، ولم تفتح لهم تلك النوافذ الصغيرة الضيقة فيها إلا كوى نور يعمي ابصارا ماعتادت غير العتمة والظلمة، في مجتمعات خنقت لدى شبابنا كل أمل في النمو والحرية واتخاذ القرار .

اننا أمام معضلة حقيقية ذات محورين ، الأول واقع الشباب العربي وتخبطه في أجواء التضييق على حريته وفرديته وفكره وسلوكه ، وافتقار بلاده إلى أية خطط واضحة أو عملية للنهوض بالاساليب التربوية القميئة، التي لم تخرج لنا إلا أجيالا من الإمعات المقلدة التي وجدت آباءها على سنة فسلكت على آثارهم سامعة مطيعة مستعدة لتقبيل الأيدي ونيل الرضى مشبوه الثمن في كل حين ، فشبت خانعة ذليلة في نفسها لاتعرف طعما للكرامة ولامعنى للحرية .

أما المحور الثاني ، فهو طبيعة الشبيبة العربية التي تتعامل مع شبكة المعلوماتية ، والتي لانعرف وبالضبط قدراتها الحقيقية ، ولا الأبعاد الاجتماعية ولاالعلمية ولاالعملية ولا المستقبلية لتعاملها مع هذه الشبكة .

ونعود من جديد ..لنستصرخ المسؤولين عن شؤون التربية في بلادنا ، لوضع خطة عربية موحدة ، وإحداث انقلابات شاملة في مناهج التدريس ، وأساليب التربية ، وطرق تعليم لغتنا المسكينة المذبوحة، بين أيدي الاستعمار والاستبداد والجهل المكعب ، وتنكب الناس عن بذل اي جهد في تغيير أو تطوير أو نمو .

كما نستصرخ وسائل الإعلام، وقد علمت خطورة دورها خاصة في هذه الانتفاضة، أن تخصص من أوقاتها وأموالها المهدورة هباء ، حصصا للنهوض بهذه المهمة ، التي لايمكن لبلد عربي واحد القيام بها ، مالم تتكاتف الجهود وتصدق النيات ، في استنقاذ هذا الجيل مما هو فيه ، فهو الأمل الوحيد الذي تبقَّى اليوم لهذه الأمة.